

القصص

على كف القدر

للأديب السيد محمد زيادة

قالت البنت الكبرى : إنه تأخر الليلة عن مواعده يا أمه .
قال الولد الأكبر : أنا أعرف أنه تأخر ليلاً جيبه بالمال ،
وسوف ترون كيف يوسع علينا الليلة فتشبع بطوننا بكل ما نشتهي .

وما هي إلا هنيهة حتى أقبل الرجل يتحامل على نفسه فيتقدم به شيء ويتأخر به شيء . . . يتقدم به الحنين إلى أولاده وتأخر به الحسرة عليهم . . . فهو بين الماشي والواقف ، يحمل على كتفه صندوقه وفيه تجارته يحجب بها الطرقات .

ورآه الأولاد مقبلاً فجئوا جنون الفرحة ، واستبقظت النائمة على أصواتهم ، ونهضوا جميعاً يهللون ويصيحون : جاء أبونا . جاء أبونا . . . أما هو فقد لقيهم بوجه كاسف مغبر ، فكان كمن توقع مصيبة فرافته مصيبتان ، وأسلم لهم يديه وجسمه يتعلقون به ويتواثبون حوله ، وأبقى لنفسه رأسه بما حوى من فكر وما حمل من هم . أما زوجته فقد علفت بصرها به فعرفت ما به ، وبادله نظرات مستصرخة بنظرات صارخة ثم تنفست وقالت : يارب . ووضع الرجل صندوقه وجلس إلى جوارها مككباً مخدولاً ؛ والثأم الأولاد حولها وقال الولد الأصغر : هل نكثت بوعدك يا أبي كمادتك ؟ قال الرجل : لا يا بني . سأفنى إن شاء الله .

قال الولد : ومتى يشاء الله ؟ كل يوم تقول هذا ولا تفعل شيئاً !! قالت البنت الصغرى : لقد تأخرت يا أبي للآن ولم تأكل ، ألم تدر أنني جائعة ؟ إني سأخاصمك ولكن بعد العشاء فضحك الرجل ضحكة باكية ثم قدم لزوجته ما في جيبه وقال : خذى هذا فهو كل ما رزقته في مطافى . . . وما الذى كان في جيبه ؟

قرش ونصف قرش جناها الرجل من سعيه طول يومه ، فهل تكفى لقوت أسرة لا آدم عندها ولا خبز ؟ يا رحمة الله بالمساكين ! يا رحمة الله ! أى فقر هذا ؟

أطفال أبرياء يرهقهم الجوع وليس لديهم مما يحمله غير الصباح والتوجع ، وليس حولهم مما يدفعه غير تسلية أمهم ووعودها وأم حسرى بمزقة الكبد ، ترى أولادها وهم فتات قلبها نوحاً يتكلم الجوع بالسنتهم . ويتكلم ألم الجوع بعيونهم ، وهى حيرى

الحياة لغز معقد أعجب ما فيه أن يشقى من لا يستحق الشقاء وأن يهنأ من لا يستحق الهناء ؛ ولكن رحمة الله قريب . . .

التف الولدان والبنتان حول أمهم في أول الليل يسألون عن العشاء ، وراحت هى تعلمهم وتشاغلهم بما يلذ لهم من الحديث ليغمي على طفولتهم فيناموا . . .

ثم ما لبثت صغرى البنين أن استلقت على حجر أمها نصفها يقظان ونصفها هاجع ، فحدبت عليها الأم ومالت تقبلها وتهز أعطافها يرفق لتصرف عنها بقية بقضة وتسرب إليها بقية نعاس . ثم نامت الفتاة طاوية تشيع على وجنتيها حمرة صفراء فيها معنى الطوى ، وترقد بين أجفائها نظرة موهونة فيها معنى الألم ، وتجول على شفيتها ابتسامة حزينة فيها معنى اليأس !!

ورأتها أمها نائمة لا يستقر على ملاحظها الكرى ، فحدقت في وجهها وأطالت التحديق . . . فأى حزن أبلغ من حزن أم فقيرة تنظر إلى وجه ابنتها النائمة فترى الجوع والفقر يتصالحان لتذبل في صلحهما زهرة ناضرة ؟

وسقطت من عين الأم على خد الفتاة قطرة من الدمع . . . ثم نهنت المسكينة دمعها ، ورفعت رأسها إلى أعلى وقالت : يارب ! ونظر الولد الأصغر إلى أمه بعد إذ تهتت وقال : هاهى ذى قد نامت فلم يبق إلا نحن الثلاثة . . . أما لديك طعام لنا ؟

قال الولد الأكبر : إذا كان لديها طعام فاذا كان يمنعها أن تقدمه ؟ . انتظر يا مجنون حتى يعود أبونا فأنا لا نملك الطعام أو ثمن الطعام إلا بعد عودته .

قال الولد الأصغر لأمه : وهل يحضر معه ما وعدنى وهو خارج في الصباح يا حضاره يا أمه ؟ أم يخلف ما وعدك فعل بالأمس وكما يفعل كل يوم ؟

قالت الأم : سيأتيك بكل ما تطلب يا ولدى والله معينه .

ثم رفع المسكين رأسه وقال : يا رب ما ذنبي وما ذنب صغاري ؟
ماذا يطعم هؤلاء الليلة وماذا يطعمون كل ليلة ؟
قالت الزوجة : خفف عنك حملك ... إن الله لم يخلقنا
لنسانا ... إنه يرانا ... إنه قادر رحيم ...
ثم قالت : سأخرج الآن لأشتري بالقرش خبزا وبالنصف
قرش جبنا ليأكل هؤلاء . وغداً يفعل الله بنا ما يريد

ورضى الأولاد أن يمسكوا رمقهم بالجبن ، فشيء خير من
لا شيء ... وخرجوا تصحبهم أمهم لتبوء عليهم في الطريق
مشقة انتظار الطعام ، ومشوا حولها يتناشون ... يقول هذا :
أنا الذي أحمل الجبن ، وتقول هذه : لا ... أنا التي أحمله ...
ويقول هذا : أنا الذي أصون الجبن ، وتقول هذه : لا ... أنا
التي أصونه ... ثم يقول هذا : أنا لذي أجلس إلى جنب أمي
وقت الأكل ، وتقول هذه : لا ... أنا التي أجلس إلى جنبها ...
حتى إذا كانوا على بعد خطوات من البقال كان النقاش
بينهم على أشده ، فعزت أمهم بأحدهم فكادت تسقط على الأرض
وسقطت النقود من يدها ... فقضت لتزد القضاء ولكن القضاء
أسبق !! حمل القرش والنصف إلى الطين ثم إلى الخفاء

يا الله !! يا الله !! ما هذه الدنيا ؟ إنها لا ترحم ولا تعرف اللين
في القسوة . نكبت هذه الأسرة بالفقر ثم لم يرضا هذا حتى
نكبتها بفقر الفقر يا أيها الأغنياء ... كيف يحل لكم عيشكم
الرغد وفي الحياة مثل هذه الأسرة ؟

ومدت المسكينة يدها في الطين تبحث فلم تجد شيئاً ... وجعلت
تبحث فلا تجد ... ثم وقفت ذاهلة وعيناها تذرفان دموعاً من حشاها
ثم جمعت أولادها الباكين وعادت ... ولكن كيف عادت ؟
عادت محطومة يستغلق على إحساسها كل ما حولها ... فلا
تسمع شيئاً مما ترى ، ولا ترى شيئاً مما تسمع ؛ وكأنها انقضت من
حولها الدنيا فلم يبق إلا هي وأولادها ، وما بينهما وبينهم إلا أنين وأنين ...
ولأنهم ليقترمون ظلمة الطريق بظلمة اليأس إذ أفلت الولد
الصغير من بينهم فتأخر ...

ثم صاح وهو يجرى ليلحقهم : أماء ... لقد وجدت قرشا !
وأخذت الأم ما في يده فاذا في يدها قطعة فضية بعشرين قرشاً ...
يا أرحم الراحمين ... ودارت الأم ، ودار أولادها معها ومضوا ...
ومضوا إلى السوق

السيرة محمد زباد

طنطا

تسمع كلامهم بأذنها وتحس آلامهم في قلبها . ولكنها لا تملك لهم
شيئاً فلا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فهي محتوم عليها أن تظل صابرة
على ما تسمع وما ترى . وأن تنسى نفسها بأولادها فتحمل كربتهم
على كربتها ، وأن تنظر دامعة ما يفلت من بين يدي القدر إلى
يدي زوجها من رزقه الحبيس .

والد بائس يعلم أن وراءه أربعة أطفال يمرغهم الجوع بين
أحضان أمهم البرية فلا يغنيهم خنانها عن الطعام ... ويعلم أنهم
يحيون في غير الحياة ، وينتظرون عودة الحياة في عودته !! فيندلق
في الطرقات ناحية فناحية يتبع شيئاً ممنوعاً ، هو رزقه ، ويصل
شيئاً مقطوعاً هو حظه ، ويقطع شيئاً موصولاً هو فقره ...
ولكنه لا يبلغ بسعيه وجهاده غير ما يقدر له ... وماذا

يقدر للفقير غير الفقر ؟ ياويلنا !! ياويلنا !!
وجعل الرجل والمرأة يتشاوران ، وراح كل من الأولاد
يطلب شيئاً بينما لا يكتفي القرش ونصف القرش لشراء شيء ...
قالت البنت الصغرى : أريد أن آكل سمكا فأنا أشتهي من شهر
وكنا طابته تؤخرونه إلى يوم بعد كل يوم . وقد رأيت بنت
الجيران تأكل منه بالأمس ، ولولا أنني خفت أن تضربوني
لشجذت منها ؛ وكانت هي تنظر إلى محتالة ونظراتها تقول لي
ما تقول ، وكنت أنا أنظر إليها حزينة ونظراتي تقول لها ما تقول أيضاً
فبكت أجفان الأم وصرخ قلبها صرخة وقالت : عزيز على
يا ابنتي — فاصبري لعل الله يرحمنا

قال الولد الأصغر : وأنا أريد أن آكل أرزاً ...
قالت الأم : آه يا ولدي !! غداً أعمل لك الأرز
قال الولد : يا طالما تقولون غداً وما يأتي الغد بشيء ...
أريد أن آكل الآن أرزاً ، وإلا فسأبكي ...
وجهش الولد إلى أمه المسكينة ، ثم بكى فبكت له وضمته
إلى صدرها وعيناها مدرار تبيع من قلبها الدسوع
وبكت البنت الأخرى فبكى الولد الآخر ...

أما الرجل . فكان مطرقاً واجماً لا يطيق أن يرى موقف
البكاء في منظر الفقر بين زوجته وأولاده ؛ وكان تائهاً في دنياه
يرى بخياله ماضيه الرخي الناعم فيز رأسه ، ويرى بعينه حاضره
الشيء المظلم فيزفر ، ويرى بفكره مستقبله الحالكة المظلمة فيرتعد
ثم ضاقت به نفسه فخرج على حكمة الرجولة وهو من
ثبات الإيمان إلى خور اليأس ... وبكى وبكى بكاء رجل ،
وما أمر بكاء الرجال !!